تاريخ الجزائر الحديث 1519-1830
السداسي: الثالث
ماستر 2
اسم الوحدة: العلاقات الجزائرية الأوربية 2

أ.د. عبد القادر فكاير

1- علاقات الجزائر مع البرتغال خلال الفترة العثمانية

كان للجزائر بحكم موقعها الجغرافي المطل على البحر المتوسط علاقات مع مختلف الدول الأوربية الكبيرة منها والصغيرة خلال الفترة العثمانية ، ومن بينها البرتغال التي كانت من أوائل الدول الأوربية التي حققت وحدتها القومية ، وتطلعت إلى الاستعمار مع بداية العصر الحديث . وقد تميزت هذه العلاقات في بدايتها بمحاولات التوسع البرتغالي على اللأراضي الجزائرية في القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر . لكن تراجع البرتغال الاستعماري بسبب النافسة الأوربية لها ، وخضوعها لبعض الوقت للنفوذ الأسباني ، قد جعل احتكاك الجزائر مع هذا البلد يقل ، وكان لقرارات مؤتمر توردسيلاس في أواخر القرن الخامس عشر دورا في هذا التباعد . غير أن الاشتباكات بين بحارة البلدين ظل قائما وخاصة في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر . وقد سعت البرتغال إلى أبرام معاهدة مع الجزائر من أجل إنهاء حالة التوتر السائدة في البحر، وقد توجت هذه المساعي بإبرام كعاهدة سنة 1813.

ـ ظهور دولة البرتغال ونشاطها البحري الأول:

تعد البرتغال من أوائل الدول الأوربية التي حققت وحدتها القومية مع بداية العصر الحديث، فإثر اعتلاء عرش البرتغال أسرة أفيز ، بتولي الملك جواو (Joao I) الأول ()، ولد في مدينة لشبونة سنة 1357، وتوفي في سنة 1433، تمكنت هذه الدولة من تأمين استقلالها بعد انتصارها على القوات الأسبانية ، وعقد تحالف مع انكلترا . وكان التجار وصيادو السمك البرتغاليون قد أبحروا في المحيط الأطلسي قبل القرن الخامس عشر الميلادي. وهذا ما أدى بدولة البرتغال تقوم بسلسلة من المغامرات انتهت بكشف العديد من مناطق جديدة ، وقد ساعد على هذا النجاح وفرة أدوات الملاحة والسفن المتطورة والاهتمام بعلم الجغرافيا. وبرز اسم هنري الملاح ابن الملك جواو الأول، إذ أسهمت دراساته في خبرات البرتغاليين البحرية، وكان يشجع ويدعم كثيرًا من الاكتشافات. وقد شارك في عدة حروب ضد بلاد المغرب ، فقد نجح في احتلال مدينة سبتة ، غير أنه فشل في احتلال مدينة طنجة. وصل البحارة البرتغاليون إلى جزر ماديرا عام 1419م والآزور عام 1431م. وعند وفاة هنري الملاح عام 1460م، كان البرتغاليون قد اكتشفوا الساحل الإفريقي الغربي وتوغلوا إلى الجنوب حيث وصلوا إلى ما يسمى اليوم سيراليون. وامتدوا على طول الشاطىء الغربي ووصلوا إلى مصب نهر السنغال ، وأسسوا به مركزا تجاريا يحرسه حصن في جزيرة أراغون بالقرب من الرأس الأبيض ومنه أخذوا يتاجرون بالذهب والرقيق. وتأسس في سنة 1484 على موقع المينا، أو ما يعرف بـ (القديس جورج المينا، أو كما يعرف لدى الفرنسيين بـ (منجم ملك البرتغال). وكان في هذا الموقع البحري يشترى الذهب من السكان المحليين، الذين كانوا يجمعونه من الأنهار المجاورة له.وتوالت إثر ذلك الحملات والرحلات والاكتشافات إلى أن تم التوصل اكتشاف الطريق نحو الهند والعالم الجديد .

ـ الحملات البرتغالية على وهران والمرسى في القرن 15:

ذكر بعض المؤرخين الأوربيين أن البرتغاليين قد احتلوا المرسى الكبير في 14 أوت 1415 ، (بينما ذكر المؤرخ عبد الرحمن الجلالي انها احتلت مرتين من طرف البرتغال، كانت الأولى في سنة 1474 ، استمر وجودهم بها لمدة خمسة سنوات . أما الثانية فقد امتدت بين سنة 1487. وذلك في عهد الملك البرتغالي يوحنا الأول ، ولكنها ظلت هذه القاعدة تتعرض دوما للهجمات التي كانت تشنها القوات الزيانية، ورغم كثرة أفراد الحامية البرتغالية المكلفة بالدفاع عن المستعمرة، فقد تمكن الزيانيون من استرجاعها في سنة 1437 ، . وفي عام 1471 شن الملك البرتغالي ألفونس الخامس (يكنى بالإفريقي ولد في مدينة سينترا عام 1432 ، تولى الملك في سنة 1438 ، وظل فيه إلى غاية سنة 1481، حارب في إفريقيا وفي قشتالة ، وفي فترة حكمه وصل البرتغاليون إلى غينيا .)هجوما جديدا على المنطقة، وكانت مدينة وهران هي المستهدفة هذه المرة، لكن فترة الاحتلال لم تدم طويلا، إذ تعرضت المدينة على حصار محكم لمدة ستة سنوات أجبرت القوات الغازية من الانسحاب من وهران سنة 1477. غير أنها ومنذ إبرامها لاتفاقية مع أسبانيا في ثورتيدياس سنة 1494 ، حول تقسيم مناطق النفوذ ، حاولت أن يكون لها نصيب من النفوذ في البحر المتوسط ، وهو ما سعت من أجله ، من خلال محاولتها احتلال المرسى الكبير.

ـ الحملة البرتغالية على المرسى الكبير 1501 وفشها:

حاول البرتغاليون مرة أخرى احتلال المرسى الكبير، غير أنهم لم يتمكنوا من الفوز بها . لقد كانت الدولتان الأيبيريتان تطلعات نحو الأراضي الإفريقية ، المطلة على البحر المتوسط ، منذ بروزهما كدولتان قوميتان في أوربا ، تسعى كل منهما إلى تحقيق الأمجاد القومية . ومن تحقيق هذا المسعى ، امتدت انظارهما إلى هذه الجهات ، وخاصة نحو مدينة وهران التي كانوا يعتبرونها وكرا للمحارة المسلمين المهاجرين إليها من الأندلس.

ففي سنة 1500 طلب البابا اسكندر السادس ، والبنادقة من دولة البرتغال تقديم مساعدات إثر نجاح العثمانيين في استعادة منطقة المورة، التي كانت تحت احتلال جمهورية البندقية . لبى البرتغال النداء ، حيث أمر بإعداد أسطول يتألف من ثلاثين سفينة مجهزة بمختلف المعدات والأسلحة ، وقوات عسكرية تتكون من ثلاثة آلاف مقاتل . وعين على رأس قيادته الدون خوان دي مينيزيس ((Don Juan de Menezes، ابن كونت مقاطعة بيانا (Viana) . كلفت هذه القوات باحتلال المرسى الكبير ، وهي في طريقها إلى شرق البحر المتوسط ، على أن يتركوا بها حامية معتبرة تتولى احتلال الساحل .

أقلعت الحامية من ميناء بلم يوم 15 جوان 1501، ووصلت إلى مدينة وهران دون أن تعترضها صعوبات ، غير أن هبوب الرياح الغربية قد أجبرت السفن على الرسو داخل الخليج لمدة ثلاثة أيام . استطاع السكان خلالها اكتشاف أمر الذي أصبح يهدد مدينتهم ، فأعلنوا حالة الاستنفار ، واستقدموا من وهران ثلاثمائة فارس ، وعدد من المشاة من أجل التصدي لهذا العدوان .

وفي26 جويلية ، تغلغلت القوات البرتغالية داخل ميناء المرسى الكبير ، حيث شرع قائد الحملة على التو في إنزال جنوده إلى البر ، دون أن يلجأ أهل المدينة إلى مقاومتهم ، ومنعهم من الإنزال منتظرين الوقت المناسب لبدء الهجوم. تقدمت بعد ذلك القوات البرتغالية نحو أسوار القلعة ، وأخذوا في إعداد السلالم لتسلق الأسوار واقتحامها . استغل سكان المدينة ومن جاء لمساعدتهم من رجال وهران والمناطق الأخرى انشغال الغزاة باقتحام القلعة ، وبدأوا بالهجوم ، كما خرج أفراد الحامية الذين كانوا داخل القلعة في الوقت نفسه ، والبالغ عددهم نحو أربعمائة فارس ،

والعديد من المشاة . فوجد الغزاة أنفسهم محاصرين من مختلف الجهات . وبدأت المعركة بين الطرفين ، كانت الغلبة فيها لصالح المسلمين ، حيث تمكنوا من القضاء على ألف جندي برتغالي وأسر عدد كبير منهم. بينما تمكن عدد آخر من الفرار إلى مراكبهم بصورة فوضوية. (بينما ذكر كازيناف أن البرتغاليين تراجعوا بفعل مطاردة المسلمين لهم نحو مراكبهم دون أن يتخلف منهم أحد، ولم يش إلى أي قتيل برتغالي .

لم يعتبر البرتغاليون بالإخفاق الذي أصابهم ، في محاولاتهم لاحتلال المرسى الكبير ، فلم يعودوا مباشرة إلى بلادهم بل واصلوا طريقهم ـ كما كان مقررا ـ في اتجاه شرقي المتوسط ، على أمل محو آثار هزيمة المرسى الكبير ، والحصول على انتصار هناك يعيد لهم الاعتبار .

هكذا كانت رغبة الملك على ما يبدو ، غير أن تلك الأمنية لم تتحقق ، ولم تجد العزائم لوحدها غي هذه الأمور ، لتحقيق الأماني ، حيث لم تِؤخذ بعين الاعتبار ، الحلة النفسية المنهارة التي كان عليها الجنود ، إثر هزيمتهم وفقدانهم عددا كبيرا من رفقائهم . فلم يتمكنوا من مناصرة الجنود البنادقة ، والوقوف في وجه الثمانيين الذين استطاعوا خلال السنة من فتح مناطق عديدة كانت تحتلها جمهورية البندقية الإيطالية ، وتتمثل دالماسيا وليبانت ، ودورازو في بحر الأدرياتيك ، وكل منطقة المورة ، بالإضافة إلى جزر أخرى في الأرخبيل . وبالرغم من إرسال الملك الفرنسي ، بعض سفنه الحربية لتدعيم القوات النصرانية ، إلا أن القوات العثمانية صمدت في وجه ذلك التحالف . وكاد العثمانيون أن يفتحوا مناطق أخرى كانت تابعة للبندقية ، غير أن الأحوال الداخلية للسلطان العثماني بايزيد الثاني (1481-1512) أخبرته على إبرام صلح مع محاربيه سنة 1502.

لقد سعد سكان وهران والمرسى الكبير بانتصارهم على البرتغاليين والدفاع عن سواحلهم، ضد اعتداءات المسيحيين ، لكنهم لم ينعموا طويلا بتلك السعادة ، يسلموا من أخطار أعدائهم ، لقد كان عدوان البرتغاليين ، مؤشرا لاعتداءات إسبانية ، تعرضوا لها بعد سنوات ، كانت أكثر خطورة

ـ الدعم البرتغالي للأسبان في حربهم ضد الجزائر:

ورثت البرتغال نفس الحساسيات الأسبانية ضد الجزائر ، وبلدان المغرب كلها وكان طرفا فيم معاهدة توردسياس مع أسبانيا بمباركة البابوية ضد البلدان المغربية ومنها الجزائر. ولذا نجده دوما في تيار المد الصليبي ضد الجزائر . ومن هنا كثرة مبادراته بحبك المناورات والمؤامرات ضد الجزائر ، ومساعيه لخلق تكتلات حربية ضدها . فإلى جانب أعمال العدوان ضد المرسى الكبير ووهران، كان لهذا البلد بعض النشاط الحربي تمثل في تعزيز الأسطول الأسباني في حملاته التي كان يقوم بها على السواحل الإفريقية المطلة على البحر المتوسط ، نذكر منها الحملة على تونس سنة 1535 حيث أرسلت سفنا حربية بلغ عددها سبعة وعشرون سفينة تحمل ألفي رجل ، تحت قيادة سالدانآ(A.de Saldanha). وكان ضمن الجيش عددا من الأمراء والتبلاء الأوربيين من بينهم ابن ملك البرتغال الدون لويس (Don Luis) .

وفي سنة 1556 ضرب حسن قورصو مدينة وهران المحتلة من طرف الأسبان ، عندئذ أبدت البرتغال رغبتها في نجدة الأسبان، فأمرت سفنها إلى الالتحاق بالسفن الأسبانية الموجودة بمالقة والمتوجهة إلى وهران . وفي سنة 1785 سعت البرتغال لإقناع الدول التي كانت في حالة حرب ضد الجزائر بضرورة تشكيل حلف بينها ضد دول المغرب كلها ، وفي الدرجة الأولى ضد الجزائر . وكانت البرتغال ضد التحالف الذي جمعها مع بريطانيا وأسبانيا بقصد فرض على داي الجزائر عقد معاهدة سلم دائمة معه ، حسبما صرح به وزير خارجية البرتغال سوزا في لشبونة للقنصل الأمريكي يوم 12 أكتوبر 1792.

ـ المواجهات البحرية في أواخر القرن الـ18 ، وبداية القرن الـ19 :

إن المعارك البحرية بين الجزائريين والبرتغاليين كانت تجري على الخصوص في النواحي القريبة من مضيق جبل طارق أو في الأطراف الشرقية للمحيط الأطلسي المحاذية الساحل الأوربي الإفريقي . وكانت تلك المجابهات قليلة الوقوع خلال القرن السابع عشر والثلثين الأولين من القرن الثامن عشر . لكنها عرفت تصعيدا خطيرا خلال الثلث الأخير من القرن الثامن عشر ، والعقد الأول من القرن التاسع عشر ، وخاصة بعد إبرام المعاهدة الجزائرية الأسبانية سنة 1786 . ولا شك أن ذلك يعود بالدرجة الأولى رفض البرتغال دفع الضرائب . فقد تمكن البحارة الجزائريون من غنم ستة عشر سفينة برتغالية وأسر 118 أسير ، بالإضافة إلى كميات معتبرة من السلع . ومن أجل الوقوف في وجه هذه الضربات المتتالية التي يتعرض لها سكان غرب الأندلس ، أقدمت الحكومة البرتغالية على تشكيل أسطول لحماية المناطق الساحلية الحساسة من هجمات البحار الجزائريين . وسعت من جهة أخرى إلى التوصل لإبرام هدنة مع الجزائر عن طريق وساطة مغربية ، لكن هذا المسعى فشل . وفي سنة 1793 نجحت الوساطة البريطانية في عقد هدنة بين الجزائر والبرتغال ، لكنها لم تدم طويلا . فقد تجددت المواجهات البحرية بين الطرفين ابتداء من سنة 1796، وخاصة المواجهات العنيفة التي حدثت خلال سنوات 1799 ، 1802 ، 1803 ، وظلت هذه الحروب مستمرة إلى غاية سنة 1810 . حيث كان الرايس حميدو قائد أغلب هذه العمليات. وقد أبرمت هذه السنة هدنة بوساطة بريطانية ، ثم أتبعت بمعاهدة سنة 1813 .

وقاد البحار الجزائري والمعروف بالرايس حميدو عدة معارك ضد البرتغال الذي تجمع مصادر التاريخ ، ومنها المصادر الغربية بأنه من أعظم الذين عرفهم تاريخ البحرية في العالم .

ففي سنة 1799 قاد الرايس ابن تابلك إحدى السفن من نوع الشبك ، تمكن من احتجاز سفينة حربية برتغالية ، وأسر تسعة وسبعون كانوا على ظهرها ، بالإضافة إلى غنيمة قدرت بـ 385 و29ف، جاء بهم إلى مدينة الجزائر يوم الجمعة 30 أوت 1799 .

وتمكن الرايس حميدو في 28 ماي 1802 أن يقود إلى مدينة الجزائر حراقة برتغالية كانت تحمل على ظهرها مائتي واثنان وثمانون أسيرا إلى جانب أربعة وأربعين مدفعا .

المعاهدات الجزائرية البرتغالية :

عقدت بين الجزائر والبرتغال أربع معاهدات :

1 ـ معاهدة هدنة سنة 1785 بين الداي محمد عثمان والملكة ماريا الأولى ، بواسطة بريطلنيا بقصد الإضرار بالولايات المتحدة الأمريكية ، إذ أن تلك الهدنة تجعل تتفرغ لها، وقد وصفها بارنبي بأنها كارثة ، ووصفها إروين بأنها مفزعة لأمريكا وفرنسا.

2 ـ معاهدة هدنة في سبتمبر 1793 ، بين الداي والملكة ماريا الأولى .

3 ـ معاهدة سلم بين الداي حسن والملكة ماريا الأولى في 28 سبتمبر 1795.

4 ـ معاهدة سلم يوم 14 جويلية 1813 بين الداي الحاج علي والملكة ماريا الأولى .

وفي بداية القرن التاسع عشر ظلت البرتغال تناضل من أجل وجودها القومي بعد غزو الفرنسيين لهذه المملكة خلال سنة 1808 ، مما أجبر ملكها على الفرار إلى ريوديجانيرو. وقد نتج ذلك الغزو إلى احتلال جزءا هاما من أراضيها . فاضطر ملكها إلى طلب التدخل من بريطانيا . فسارعت هذه الأخيرة إلى تلبية النداء من أجل حماية مصالحها في جبل طارق ، والعمل على نجدة حليفتها البرتغال ، وتعزز التحالف بين البلدين مما أدى إبرام معاهدة تجارة وصداقة بينهما سنة 1810.

وكانت من جهة أخرى تسعى بريطانيا لربط علاقاتها مع إيالة الجزائر، حيث عملت كل ما في وسعها من أجل أن تحظى بالمعاملة التي كانت تعامل بها فرنسا من طرف الجزائر في أوقات السلم والحرب . وكانت تسعى من جهة أخرى في نية غير معلنة ، إفساد التقارب الفرنسي الجزائري ، وتعطيل الاقتصاد الفرنسي . فقد استطاعت أن تتحصل في سنة 1806 على المؤسسات التجارية ، وذلك باستغلالها بطريقة غير مباشرة ، تترك الحرية فيها لجميع التجار ماعدا الفرنسيين.

وأمام توتر العلاقات بين الجزائر والبرتغال ، التي ميزتها الكثير من المعارك الحربية بين بحارة البلدين خلال العقد الأول من القرن التاسع . حيث تمكن البحارة الجزائريون في كثير من الأحيان التأثير على تجارتها ، وغنم العديد من وحدات الأسطول البرتغالي، وأسر العديد من الرجال .

وإزاء هذه الأحداث ، صممت بريطانيا على استعمال نفوذها هنا في الجزائر في صالح حليفتها عاثرة الحفظ وتحريرها على الأقل مؤقتا من مضايقات أعدادها .

وفي شهر ماي من نفس السنة (1810) سافر سكرتير المفوضية البريطانية في لشبونة من تلك العاصمة قاصدا الجزائر حيث أجرى مفاوضات مع السلطات الجزائرية لعقد هدنة، أو بعبارة أدق لوضع المواد الأولى لمعاهدة الصلح بين البلدين .

وتقضي هذه النصوص بأن تدفع البرتغال إلى الجزائر مبلغ 690000 دولار . مضافا إليه مبلغ 337000 دولار فدية للأسرى البرتغاليين المحتجزين في الجزائر والذين يبلغ عددهم 615 أسيرا.

وكانت بريطانيا قد تعهدت بأن تستمر على استخدام نفوذها في الجزائر للحصول على عقد معاهدة نهائية للصلح .

وفي غضون السنة التالية دفعت السلطات البرتغالية الفدية ، وأطلق سراح الأسرى البرتغاليين المحتجزين في الجزائر .

وفي سنة 1813 عقدت بين البلدين معاهدة صلح نهائية بواسطة السيد أ.كورت الوزير البريطاني المفوض لدى دول المغرب وقد احتوت هذه المعاهدة على ستة عشر مادة. دفعت البرتغال بموجبها إلى الجزائر مبلغا إضافيا قدره نصف مليون دولار . كما تعهدت بأن تدفع ضريبة سنوية قدرها 24000 دولار . بالإضافة إلى الهدايا القنصلية التقليدية وهدايا فترة كل سنتين. وعقب عقد هذه المعاهدة ، عين قنصل إنجلترا في الجزائر قنصلا للبرتغال أيضا، وهو يتقاضى من أجلها المرتب والمنح العادية .